مقدمة الطبعة الثانية

شاءت الظروف ألاّ تصدر الطبعة الأولى من هذا الكتاب العظيم ، محققاً فى صورته الجديدة ، إلا فى شهر أبريل من عام ١٩٧٦ م ، وبعد شهور قليلة نفدت الطبعة كلها ، رغم أن السوق نافق بطبعاته السيئة ، رديئة ومشوّهة وناقصة ، فجاء الإقبال من جانب المثقفين العرب على هذه الطبعة مؤشراً صادقاً على دلالات جديدة وهامة ، جاء :

- تقديراً للتراث حين يكون جيداً وعصرياً ويمس حياة الناس
- تقديراً لجهد بذله المحقق فى ضبط نصه ، وتحرير هوامشه ، ولم يدخر وسعاً فى مهمته .
- تقديراً لطباعة رائعة ، وإخراج فخم ، جعل الطبعة العربية ، لأول مرة فى تاريخ الطوق ، تقف دون أن تحس بخجل ، إن لم نقل ملؤها الزهو ، إلى جانب الطبعات الأوربية الأخرى .

لقد وجدت فى الإقبال على « الطوق » تقديراً مناسباً لما بذلت فيه من عناء وجهد ، ودفعاً لمواصلة البحث والقراءة فيه وحوله ، حتى يجئ فى صورة أكمل ، وفى خلال هذه الشهور التى مضت تقدمت به نحو الكمال خطوة تحدثت عنها فى آخر الكتاب .

والله أسأل أن يكون حظ هذه الطبعة كسابقتها إقبالاً وتقديراً .

الطاهر أحمد مكى

obeikandl.com

كلمة المحقق

فى نهاية النصف الأول من القرن السابع عشر ، هبط الآستانة سفير مستشرق يُدعى فون وارنر ، جاء يمثل بلاده هولندة لدى بلاط آل عثمان ، وقُدِّر له أن يبقى فيها اثنين وعشرين عاما ، من سنة ١٦٤٤ إلى ١٦٦٥ م ، لكنه ما لبث أن شُغل باهتماماته العقلية ، فولىَّ وجهه شطر المخطوطات العربية ، وقد أُشرب حبها طالبا جادًا فى مدرسة المستعربين الشهيرة فى ليدن ؛ وأصبح البحث عنها شاغله الأول ، ينسخها ويشتريها ، ويحتال عليها إن لم تواته الأولى أو الثانية ، ولم يكن فى حاجة إلى زمن أوخبرة ليدرك أنه فى عاصمة الخلافة بين ذخائر لا تنفد من التراث العربى ، جاء بها السلاطين نهبا من البلاد الأخرى ، أو نقلها العسكريون سطواً ليتبركوا بها ، ويتاجروا فيها من بعد .

ثم جاءته الفرصة بأبعد مما يمكن أن يجرى به خياله ؛ فتوفى على أيامه حاجى خليفة الشهير ، عام ١٦٥٨ م ، صاحب كتاب « كشف الظنون » ، وكان يملك واحدة من كبريات مكتبات الآستانة الخاصة ، جمعها أثناء عمله فى الجيش العثمانى ، وارتحاله عبر البلاد الإسلامية ، فى بغداد وهمدان وحلب . لقد اشترى منها وارنر ، ومن غيرها ، كتبا كثيرة بلغت ألف مخطوط ، بين عربى وفارسى وتركى وعبرى ، اشتملت على شتى العلوم ، من لغة وأدب وتاريخ ، وشريعة وفلسفة وطب ، وتنوّعت فى طابعها ، تميّز بعضها بجمال خطه ، وبعضها بأصالته وقدمه ، وبعضها بندرته ، ثم أهدى ذلك كله إلى جامعة ليدن فى هولندة ، لتنضم إلى مخطوطات عربية أخرى كثيرة وقيمة .

وكان « طوق الحمامة » بين هذه المخطوطات النادرة . مِن أى البلاد جاء ؟ مَن صاحبه الأول ؟ ، لا أحد يدرى . وقُدِّر لهذه النسخة أن تستقر مجهولة فى مكتبة ليدن قرابة مائة وخمسة وسبعين عاما .

مع مطلع القرن التاسع عشر عهدت الجامعة إلى عدد من المستشرقين بفهرسة المخطوطات العربية التى تملكها ، وكان من نصيب المستشرق الهولندى رينهارت دوزى ، المتخصص فى الدراسات الأندلسية ، أن يكتشف نسخة « طوق الحمامة » وأن يعرّف العالم بها فى أول طبعة تصدر لفهرس المخطوطات العربية فى جامعة ليدن ، وحمل وصف المخطوطة رقم ٤٦١ من مجموعة وارنر .

وعندما نشر دوزى كتابه « تاريخ مسلمى إسبانيا » ، عام ١٨٦١ ، نقل من كتاب « طوق الحمامة » الصفحات المتصلة بقصة حب ابن حزم الأولى ، وترجمها فى فرنسية رقيقة عذبة ، فذاعت فى كل أنحاء أوربا ، وأعطت الكتاب شهرة واسعة . وعن دوزى ترجمها إلى الألمانية فون شاك ، فى كتابه « شعر العرب وفنهم فى إسبانيا وصقلية » ، وعنه ترجمها الروائى الأديب خوان فالييرا عندما ترجم الكتاب كله إلى الإسبانية ، ثم جاء من بعده مواطنه بونس بويجس فترجمها إلى اللغة الإسبانية ثانية ، من اللغة العربية مباشرة . وقد حاول بونس هذا ، ومن بعده العالم الإسبانى الجليل ميجيل أسين بلاثيوس ، أن ينشر النص العربى ، لكن الموت اختطف أولهما فى سن فتيّة ، وشُغل الثانى بكتاب « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » لابن حزم ، وهو أقرب إلى اهتماماته الفلسفية ، فلم يقدر للمحاولة أن تتم .

وفى صيف ١٩٠٧ سافر المستشرق الروسى الشاب د . ك . بتروف إلى مدينة تيوبنجين فى ألمانيا ، ليلتقى الأستاذ زايبولد ، وكان المستشرق الألمانى الوحيد المتخصص فى الدراسات الأندلسية ، فحمل بتروف على أن ينشر النص العربى لطوق الحمامة . وعاد المستشرق الروسى إلى مقره فى مدينة بطرسبرج ، والتى ستعرف فيما بعد باسم لينينجراد ، وكان يعمل أستاذاً فى جامعتها الإمبراطورية ، وفى ذهنه أن يدفع بالفكرة إلى حيّز الوجود ، لكن مواطنه المستشرق البارون روزن (١٨٤٩ – ١٩٠٨) وكان أكبر منه عمراً ، وأعرق فى مجال الاستشراق ، اعترض عليه ، فقد رأى أن قيام مستشرق ناشئ بمثل هذه المحاولة ، معتمداً على مخطوطة وحيدة ، عمل بالغ الصعوبة ، ومحفوف بالمخاطر .

لكن بتروف مضى فى المحاولة ، وعاونه مواطنه المستشرق كراتشكوفسكى فى تصحيح تجارب الطبع ، وصدرت الطبعة الأولى للنص العربى كاملا ، فى سلسلة الكتب التى

تنشرها كلية الآداب ، فى جامعة بطرسبرج الإمبراطورية ، وطبع فى مطبعة بريل العربية الشهيرة فى ليدن ، عام ١٩١٤ . ولا يملك المرء إلاّ أن ينحنى تقديراً لهذه المحاولة الجريئة ، لقد بذل بتروف جهداً عظيما ، فأعطانا صورة صادقة للمخطوطة ، وضبط الشعر بالشكل ، وبعض كلمات النص ، وألحق به فهرسا للقوافى ، واخر للأعلام ، وقدّم له باللغة الفرنسية فى صفحات تبلغ الثمانى والثلاثين . وكان موفقاً فى محاولته إلى حد بعيد . لكنه لم يكن متخصصا فى الدراســـات الأندلسية ، وكانت على أيامه فقيرة وواهنة خارج نطاق إسبانيا ، فلم يصلح من أخطاء الأصل إلاّ قليلا من الألفاظ ، التى يمكن تداركها للوهلة الأولى .

ولكن ذلك لا يمس روعة العمل الذى قام به ، فما أشد صعوبة الخطوة الأولى ، وأشق إنجاز العمل الرائد ! .

غير أن النص العربى ، كبقية النصوص العربية الأخرى التى طُبعت فى أوربا ، ظل محدود الانتشار للغاية ، حتى أن نسخاً منه لمّا تزل معروضة للبيع حتى يومنا ، ومع هذا أثار اهتمام كافة المستشرقين ، وعُنى به كبارهم ، فعلّق على الطبعة العربية كل من بروكلمان وجولد تسيهر ، وأشادا بالعمل ، وصححا بعض ماوقع فيه من أخطاء ، ومن الطبيعى أن تحدث فى كتاب ينشر للمرة الأولى ، عن مخطوطة وحيدة .

نشر بتروف الكتاب عن مخطوطة مجموعة وارنر ، وجاءت فى ٢٧٦ صفحة ، مجلّدة ، وتتراوح مسطرتها بين عشرة أسطر وخمسة عشر سطرا ، واضحة الخط ، مشكلولة الشعر ، وكُتبت منها العناوين ، وأمثال كلمات : « حدّث » و« خبَر » بالحبر الأحمر ، بخط أكبر قليلا من المعتـاد فى بقيـة النص . والناسخ يقظ جداً ، لا يخونه قلمه إلا نادراً ، وإنما يجئ الغموض من صعوبة المعنى ، وهى ليست بخط المؤلف ، وإنما كتبها ناسخ مولع بالنص ، وفرح بقدرته على إكمال نسخه ، وأتمه فيما يقول ، فى مستهل رجب الفرد سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة (٧٣٨ هـ = ١٣٣٧ م) أى بعد وفاة ابن حزم بما يقرب من ثلاثة قرون . ولم يعطنا أية إشارات إلى النسخة الأم التى نقل عنها ، ولا يذكر أنه عارض ما نسخ بما نسخ عنه .

ولا نعرف الناسخ ، ولا المكان الذى أتم فيه عمله ، وفيما يبدو قام به رغبة فى اقتناء الكتاب ، ولم ينسخه مأجوراً عليه ، ولا قاصداً بيعه ، وسجل على نفسه أنه : « حذف

أكثر أشعارها ، وأبقى العيون منها ، تحسينا لها ، وإظهاراً لمحاسنها ، وتصغيراً لحجمها ، وتسهيلا لوجدان المعانى الغريبة من لفظها » .

وأراه حذف أكثر الشعر ، وأضاع علينا نصوصا هامة ، فقد كان ابن حزم فى أشعاره طويل النفس ، ثرىّ المدد ، لا يكتفى بالمقطوعة ، ولا يقنع بالقصيدة العادية ، مغرما بالطوال منها ، وشاهدنا على ذلك قصيدة طويلة وحيدة ، جاءت فى ٨٦ بيتا ، وأبقى عليها الناسخ كاملة ، ربما لأنها جاءت فى آخر الكتاب ، فأراد أن يسوّد بها ماتبقى لديه من صفحات بيضاء ، أولأنها جاءت من الشعر الوعظى المحبّب إلى نفسه .

وشاهدنا عليه أيضاً ، طابع ابن حزم فيما وصلنا من ديوان شعره ، وأنا بصدد تحقيقه ونشره ، فقصائده فيه ، جاءت فى عدد منها لا بأس به من القصائد الطوال .

ولا أظن الناسخ وقف باختصاره عند الشعر وحده .

فقد أورد لنا المقّرى ، فى كتابه نفح الطيب ، فى الجزء الثانى ، ص ٢٨٨ ، القصة التالية : « قال ابن حزم فى « طوق الحمامة » : إنه مرّ يوما هو وأبوعمر ابن عبد البر ، صاحب « الاستيعاب » ، بسكّة الحطابين من مدينة إشبيلية ، فلقيهما شاب حسن الوجه ، فقال أبومحمد : هذه صورة حسنة ، فقال له أبوعمر : لم نرإلاّ الوجه ، فلعل ما سترته الثياب ليس كذلك ، فقال ابن حزم ارتجالا :

وذى عذل فيمن سبانى حُسْنُهُ ... يطيل ملامى فى الهوى ويقولُ :

أمــن أجل وجهٍ لاح لم تــر غيره ... ولم تدر كيف الجسمُ ، أنت عليل

فقلت له : أسرفتَ فى اللوم فاتّئدْ ... فعندىَ ردٌّ لو أشاء طويل

ألم تر أنّى ظاهــــرىٌّ وأنّنى ... على ما أرى حتى يقــوم دليل

وهذه القصة ساقطة من نسخة « الطوق » التى بين أيدينا ، ولا يمكن ردّها بالشك فى رواية المقّرى ، لأن جوّها أشبه الأجواء بما فى « الطوق » . وأزعم أن يد الناسخ امتدت إلى ما هو أكثر منها ، مما لم يرض من حكايات وقصص « الطوق » ، وأكاد أقول ، وإلى مالم يفهم من قضاياه أيضاً .

وبعد طبعة بتروف بسبعة عشر عاما ، قام محمد ياسين عرفة ، صاحب مكتبة عرفة فى دمشق ، بطبع النص العربى ثانية ، عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣٠ م ، وصدّره بفقرات مقتبسة ومترجمة عن مقدمة بتروف للكتاب باللغة الفرنسية ، وبموجز لحياة ابن حزم ،

وقدم له من دعاه شاعراً كبيراً محمد البزم . وكانت الطبعة قريبة من طبعة بتروف ، بعد أن حذف الناشر منها الفهارس ، واستغنى عن ضبط الشعر ، برغم أنه جاء مضبوطا كله فى الأصل ، وفى طبعة المستشرق الرومى ، ولم يتقدم بالنص خطوة واحدة نحو ما هو أصوب وأدق

وفى عام ١٩٤٩ ظهرت الطبعة الثالثة باللغة العربية لكتاب « طوق الحمامة » ، قام عليها المستشرق الفرنسى ليون برشيه ، وكان يعمل أستاذاً فى كلية الآداب بجامعة الجزائر . وفى مدينة الجزائر نفسها صدرت ، ولكن دائرة ذيوعها كانت محدودة للغاية ، وقد بذل برشيه ، وهو معروف بأبحاثه اللغوية ، جهداً طيبا فى تصحيح الأخطاء ، ولكنها أعتى منه ، فلم يستطع غير تصويب القليل ، غير أن تعليقاته اللغوية والفقهية ذات أهمية كبرى .

وبعد هذه الطبعة بعام واحد ، قام الأستاذ حسن كامل الصيرفى بطبع الكتاب للمرة الرابعة فى القاهرة ، عام ١٩٥٠ ، والحق أنه حاول أيضا أن يصحح بعض كلمه ، وأن يقوّم بعض أبيات شعره ، وزادُه شاعرية قادرة ، ومعرفة باللغة متمكنة ، وهما وحدهما لا تكفيان .

كان الكتاب فى حاجة إلى من يعرف الأندلس تاريخا وتراثا وحضارة ، يأخذ من ذلك كله ، ليقوّم نصّاً صعباً جاءنا فى مخطوطة وحيدة ، وكان حظ الأستاذ الصيرفى من المعرفة بالأندلس متواضعا فيما يبدو ، ومن ثمّ فإن جهوده لم تغن شيئا . جاء الكتاب وعدد من فقراته مضطرب خاطئ ، ومعظم الأسماء الواردة فيه مغلوط مشوّه ، وجاء الطابع فأفسد ضعف ما أصلح الناشر ، فسقطت من الكتاب جمل وكلمات ، ضاع معها المعنى أو اضطرب ، فكانت هذه الطبعة ، برغم ما بذل فيها من جهد ، وبرغم أنها طبعت ثانية عام ١٩٦٤ أسوأ من طبعة دمشق ومن طبعة بتروف .

صحيح أن الأستاذ إبراهيم الإبيارى قدمّ لهذه الطبعة ، وتربطه بالأندلس أوشاج من النسب ، ولكنه فيما بدا لى كتب المقدمة مجاملا عجلا ، وليس مشاركا مسئولا ، فلا أكاد أتصوّر أن الرجل الذى عاش حياته قارئا وكاتبا ومحققا يمكن أن يخطئ فى موطن ستندال ، فينسبه إلى إيطاليا وهو أديب فرنسى شهير . ولا أكاد أتصور أن يقول : « جيران صاحب المرية » ، لمجرد أنها وردت فى الأصل كذلك ، ومن له أدنى معرفة

بالأندلس يعرف أن صحّتها « خيران » .

كان من الضرورى أن يتقدم دارس ليصنع من أجل « طوق الحمامة » شيئ ، أن يقترب به على الأقل من مستوى الترجمات الأجنبية ، ووجدتنى مدفوعا إلى هذا العمل . لقد نما هذا الإحساس عندى منذ بدأت أتردّد بين صفحات الكتاب فكراً وإحساسا ونظرا ، وأعانى الكثير من غموض النص ، ومن تحريف الأسماء ، ومن غيبة الهامش . وبدا لى للحظات كثيرة أن المهمة عسيرة ، فترددت . فليس أصعب من تحقيق كتاب مخطوطته وحيدة ، ونصه مليء بالأخطاء ، والناقلون عنه قلة لا يذكرون ، أو إن شئت الدقة لا يوجدون . وأخيراً صحّ العزم منى ، لأن التقدّم خطوة إلى الإمام ، خير من الإحجام والوقوف به حيث كان . وقد أفدت من جهود المستشرقين قبلى ، وهى كبيرة وجليلة ، وعلى الأخص ما قام به الإسبانى الأستاذ إميليو غرسية غومث ، وما قام به الفرنسى ليڤى بروفنسال .

لكن « طوق الحمامة » ليس نصاً يقوّم ، ولا هوامش تحرّر ، ولا أعلاماً يعرف بها فحسب ، وإنما هو قبل ذلك خلق أدبى عميق ، وثقافة علمية أصيلة ، وهو فى كل صفحة ، ووراء كل خبر ، يثير عدداً من القضايا الهامة والخطيرة .

حين وقف دوزى على قصة الحب الرقيقة لابن حزم ، استكثرها على العرب ، وعلى المسلمين ، برغم أن الرجل علمانى لا يحب الكنيسة ولا يتعاطف مع رجال الدين ، وقال إن هذا الغزل العف ، لا تعرفه الأخلاق العربية ، ولا الديانة الإسلامية ، وأنه تحدّر إلى ابن حزم إرثاً من أجداده الأول المسيحيين .

وتصدى له ميجيل أسين بلاثيوس ، فى دراسته عن ابن حزم ، فنّد آراءه ، ووضع كل شيء فى مكانه الصحيح ، بقدر ما تتيح الكنيسة لرجالها من حرية فى الرأى والتفكير ، فقد كان بلاثيوس راهباً ، لا ينشر شيئاً قبل أن يمرّ على الرقيب الكنسى .

وعندما نقرأ كتاب « الحب المحمود » لكاهن بلدة هيتا الإسبانى ، نحسّ بأن الرجل قرأ ابن حزم ، وأفاد منه ، وسار على خطوه ، برغم أنه جاء بعده إلى الحياة ، فى الجانب المسيحىّ ، بفترة من الزمن تبلغ حوالى ثلاثة قرون .

وقد استوقف نظر غرسية غومث الشبه بين أفكار « باب السفير » ، وبين رواية فرناندو دى روخاس (١٤٥٣ – ١٥٤١ م) ، ويمكن ترجمة عنوانها : « بالقوّادة

La Celestina ، دون أن يذهب إلى أبعد من هذه الإشارة .

وطوّف كتاب « الطوق » ، شرّق وغرّب على نحو لم يعرفه غير قليل من كتب التراث العربى ، ونقل إلى بعض اللغات فى أكثر من ترجمة ، وكان حرياً بنا أن نقف عند هذه التراجم كلها .

والكتاب سيرة ذاتية ، أو هو قريب منها ، للجانب العاطفى من حياة ابن حزم ، وهادٍ إلى الحياة العاطفية لعدد من معاصريه ورفاقه ، ممن شغلوا مناصب رفيعة ، فى الإدارة والقضاء والجيش على أيامه . وإذا كان الكتاب مصدراً هاما لهذا الجانب من حياة فقيه قرطبة العظيم ، فإن تتبّع خطاه فى رحلة الحياة أمر ضرورى لإلقاء بعض الضوء على فصول الكتاب ، وإنارة أحداثه ، وتفسير ما وراء جمله ومعانيه .

وكان لعدد من علماء الأجانب ، مستشرقين ومفكرين لا يعرفون من العربية حرفا ، رأى فى الكتاب . لقد قدّم الفيلسوف الإسبانى العالمى أورتيجا إى جاسيت للترجمة الإسبانية ، وقال رأيه فى فكر ابن حزم ، وأبدى آخرون آراءهم فى لغات أخرى ومهمّ أن يعرف القارئ العربى كيف يرى غيرنا هذا العالم الجليل ، ومن هنا كانت ترجمة هذه الفصول ، أوبعضها ، ضرورة لا مناص منها .

كل ذلك وأكثر منه دار بخاطرى ، وأخذت له أهبتى ، وحررت منه فصولاً كثيرة ، تتصل بعدد من هـذه القضايا ، ثم وجدتها تتجاوز حجم الكتاب ، فلم أشأ أن أجعلها مقدمة له . وآثرت أن أجمعها فى دراسة مستقلة . وإنْ ربطتها بالنص نفسه أقوى الوشائج ، فلا يقرأ أحدهما بمعزل عن الآخر ، وسوف تصدر قريبا بعنوان : « دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة » .

لقد قوّمت الفقرات المضطربة ، وصوّبت الأسماء المحرّفة . وعرّفت بالأعلام ما كان ممكنا ، صنعت ذلك ما أعانتنى عليه كتب التاريخ والمصادرالأخرى، وأبقيت الجمل الغامضة على ما هى عليه ، خشية أن يكون تقويمى لها ، إهدارا لفكرة أرادها المؤلف ، أوعدوانا على غاية ارتضاها ، أوانحرافا بما خفى من رأيه ، أوانعطافا نحوجانب ما فكّر فيه ، ولوبعث اليوم حيًّا لأنكره غاضبا .

كان « طوق الحمامة » أروع كتاب درّس الحب فى العصر الوسيط ، فى الشرق والغرب ، فى العالمين الإسلامى والمسيحى ، تتبع أطواره ، وحلّل عناصره ، وجمع بين

الفكرة المفلسفة والواقع التاريخى ، وواجه أدق قضاياه فى وضوح وصراحة . وكان ابن حزم الدارس الواقعى فى كل خطاه ، أفكاره محلّقة ، وقدماه على الأرض ، ويصدر فى نظرته عن تجربة عميقة ، ذات أبعاد إنسانية واسعة ، وعن إدراك ذكىّ لطبائع البشر وسير الحياة ، فجاءت نتائجه صادقة ، لمّا تفقد بريقها ولا توهّجها ، وإنها لتقف الآن فى مستوى أرقى الدراسات عن الجنس والحب .

وأشهد أننى وقفت أكثر من مرة أمام بعض الحقائق ، وبعض الفقرات ، كان فيها ابن حزم ، كعادته ، جريئا صريحا ، مرتفع الصوت ، لا يُكنى ولا يُلمح ولا يشير ، وإنما يعالج قضاياه مفكرا دارسا ، لا يتأثّم ولا يتردّد ، وهممت أن أدع هذه الفقرات ، ومع شىء من الفكر والتأمل ، رأيت ذلك جرما ، لا فى حق النص فحسب ، وإنما فى حق التراث العربى ، وفى حق أجيالنا الصاعدة فى أن تعرف كل شىء .

إن ما يرتضيه ابن حزم الأديب العالم ، والفقيه الظاهرى ، وما يقبله ذوق المسلمين فى قرطبة الزاهرة ، عاصمة الأندلس أيام الخلافة ، وما بعدها ، فى القرن العاشر الميلادى وما تلاه ، ليس تدّينا ولا ورعا ولا تطورا ولا محافظة أن ترفضه قاهرة القرن العشرين ، وراثدة النهضة فى العالمين العربى والإسلامى ، ومن هنا أبقيت النص على حاله كاملا .

وبعد ،

فالكتاب بين يدى القارئ ، ولست أقول إننى بلغت به كل ما أريد ، ولكنى أزعم أننى تقدمت به على طريق الصواب خطوات .

ولعل فى قادم الأيام مايعيننا على أن نبلغ به حد الكمال . والله ولى التوفيق .

٣٩ شارع المراغى – العجوزة
القاهرة الكبرى
٢٧ من جمادى الآخرة ١٣٩٥
٧ من يولية ١٩٧٥

الطاهر أحمد مكى

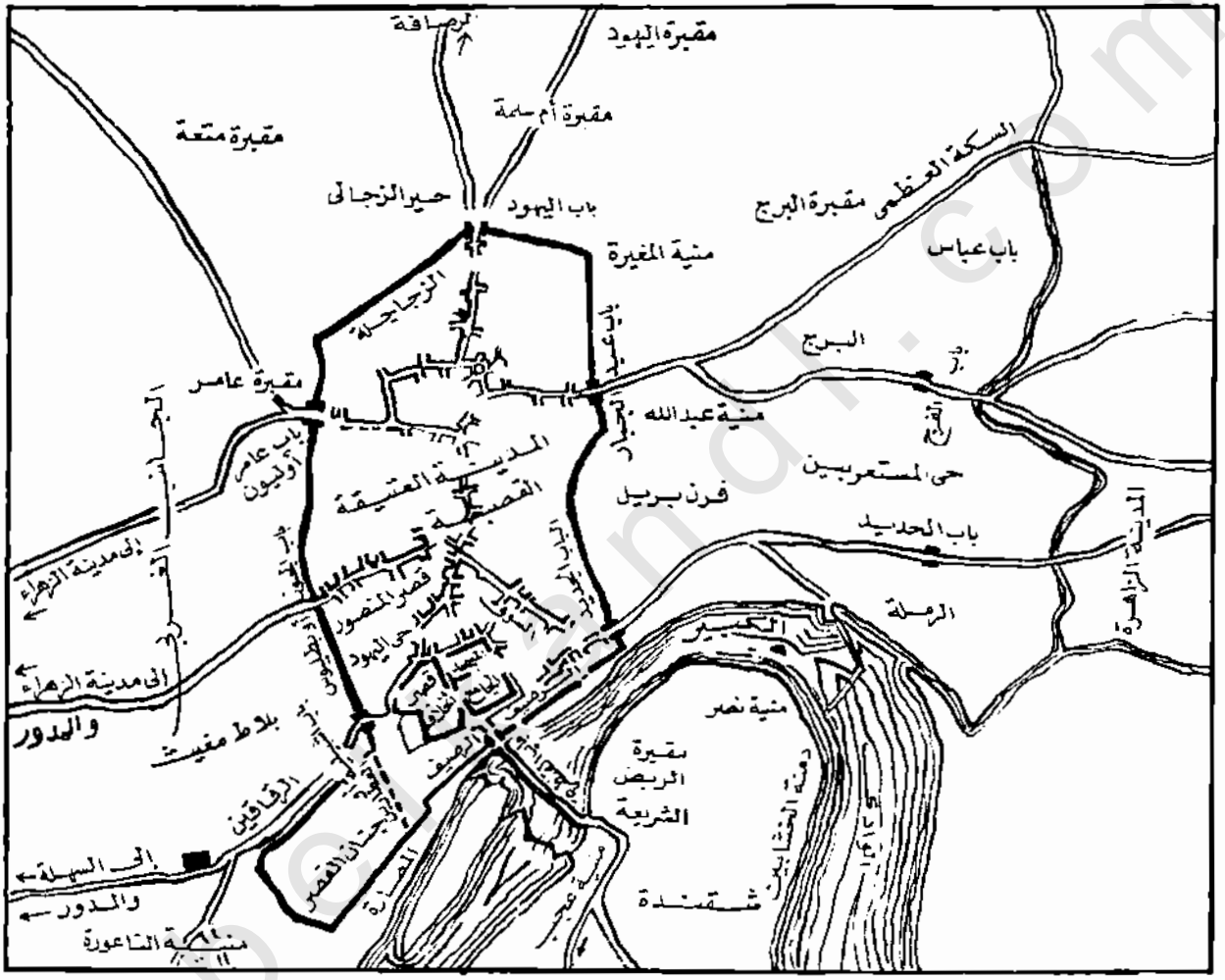

مخطط تقريبى لمدينة قرطبة فى القرن العاشر الميلادى

obeikandl.com

طوق الحمامة

في الإلفة والأُلاّف

obeikandl.com

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

قال أبو محمد عفا الله عنه :

أفضلُ ما أبتدئ به حمد الله عزّ وجلّ بما هو أهله ، ثم الصلاة على محمد عبده ورسوله خاصة ، وعلى جميع أنبيائه عامة .

وبعد :

عصمنا الله وإياك من الحيرة ، ولا حملنا مالا طاقة لنا به ، وقيض لنا من جميل عونه دليلا هادياً إلى طاعته ، ووهبنا من توفيقه أدبا صارفا عن معاصيه ، ولا وكلنا إلى ضعف عزائمنا ، وخَوَر قوانا ، ووهاء بنيتنا ، وتلدد آرائنا ، وسوء اختيارنا ، وقلة تمييزنا ، وفساد أهوائنا .

فإن كتابك وردني من مدينة المرية[1] إلى مسكني بحضرة شاطبة[2]، تذكرُ

---

(١) المرية Almería : ثغر هام على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، أمر ببنائها عبد الرحمن الناصر عام ٣٤٤ هـ = ٩٥٥ م ، وعظمت فى دولة المنصور بن أبى عامر . وكانت إحدى القواعد البحرية الهامة للأسطول الإسلامى ، عامرة بصناعات النسيج وتطريز الثياب ، وآلات الحديد والنحاس ، وميناء هام للاستيراد والتصدير ، تقصدها مراكب التجار من الإسكندرية والشام ، وبها محط مراكب النصارى ، ومجتمع ديوانهم ، ومنها كانت تسفر لسائر البلاد بضائعهم ، ومنها كانوا يوسقون البضائع التى تصلح لهم . ويقول عنها عبد المنعم الحميرى : لم يكن بالأندلس أكثر من أهلها مالا ، ولا أعظم متاجر وذخائر ، وكان فيها قريباً من ألف فندق . وقد ألف فيها أبو جعفر ابن خاتمة تاريخاً كاملاً أسماه : « مزيّة المرية على غيرها من البلدان الأندلسية » ، لما تزل مخطوطته ضائعة ، وكانت موجودة حتى أيام المقّرى صاحب كتاب « نفح الطيب » ، المتوفى عام ١٠٤١ هـ = ١٦٣٢ م ، وقد قرأها وأفاد منها . وهى الآن من كبريات المدن الأسبانية الواقعة على البحر الأبيض ، ويبلغ عدد سكانها زهاء مائة ألف ، وما تزال قلعتها العربية قائمة ، وازدهرت فى الأعوام الأخيرة بفضل السياحة ، ويربطها بمدينة مليلة على الشاطئ المغربى خط بحرى منتظم . انظر :

- الحميرى ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم : كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، وقد انتخب منه ليفى بروفنسال الفصول الخاصة بالأندلس ، ونشرها بعنوان : صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٨٣ - ١٨٤ ، القاهرة ١٩٣٧ .
- المقرى : نفح الطيب ، طبع محيي الدين عبد الحميد ، جـ ١ ص ١٥٣ و ١٥٤ ، و جـ ٤ ص ٢٠٦ ، القاهرة ١٣٦٧ هـ = ١٩٤٩ م .

(٢) شاطبة Játiva : مدينة عتيقة ، وكانت تسمى قديماً Saetabis ، وهى من أعمال محافظة بلنسية ،

من حسن حالك ما يسرّنى ، وحمدت الله عز وجل عليه ، واستدمته لك ، واستزدته فيك .

ثم لم ألبث أن اطّلع على شخصك ، وقصدتنى بنفسك ، على بعد الشُّقة ، وتنائى الديار ، وشَحَط المزار ، وطول المسافة ، وغوْل الطريق . وفى دون هذا ما سلّى المشتاق ، ونسّى الذاكر ، إلاّ من تمسك بحبل الوفاء مثلك ، ورعى سالف الأذمّة ، ووكيد المودّات ، وحق النشأة ، ومحبة الصبى ، وكانت مودته لله تعالى .

ولقد أثبت الله بيننا من ذلك ما نحن عليه حامدون وشاكرون ، وكانت معانيك فى كتابك زائدة على ما عهدته من سائر كتبك ، ثم كشفت إلى بإقبالك غرضَك ، وأطلعتنى على مذهبك ، سجيّة لم تزل علينا من مشاركتك لى فى حلوك ومرك ، وسرك وجهرك ، يحدوك الودّ الصحيح الذى أنا لك على أضعافه ، لا أبتغى جزاء غير مقابلته بمثله .

وفى ذلك أقول مخاطبا لعبيد الله بن عبد الرحمن بن المغيرة بن أمير المؤمنين الناصر(٣) رحمه الله ، فى كلمة لى طويلة ، وكان لى صديقا :

أوُدُّك وُدّاً ليس فيه غضاضـــــةٌ وبعضُ مودّات الرجالِ سَرابُ

وتقع فى الجنوب الغربى منها على بعد ٥٦ ك . م . ، واشتهرت فى العصر الإسلامى بصناعة الورق ، ونسب إليها ، ولا تزال حتى اليوم مركزاً هاماً لصناعته . وإليها ينسب أبو القاسم محمد بن فِيرُّه الرعينى الشاطبى ، المتوفى فى القاهرة عام ٥٩٠ هـ = ١١٩٤ م ، وشُهر بأرجوزته « حرز الأمانى ووجه التهانى » ، وأوجز فيها كتاب « التيسير » لأبى عمرو الدانى ، المتوفى ٤٤٤ هـ = ١٠٥٣ م ، فى القراءات ، وشهرت باسم « الشاطبية » . وإليها ينسب أيضاً أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافرى الشاطبى ، وعاش فى القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى ، وجاء مصر ، واتخذ من الاسكندرية سكناً ، وتوفى بها ، وإليه ينسب حى الشاطبى فى المدينة الآن .

وقد سقطت شاطبة نهائياً فى يد الكاثوليك ، بقيادة خايمة الأول ، ملك أرجون ، عام ١٢٤٠ م .

(٣) عبد الرحمن الناصر أعظم أمراء بنى أمية بالمغرب سلطاناً ، وأطولهم فى الخلافة مدة وزماناً ، وحكم من ٣٠٠ هـ = ٩١٢ م إلى ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م .

انظر ترجمته فى :

- الحميدى : جذوة المقتبس ص ١٣ .
- ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ص ١٦١ .
- ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ ١ ص ١٩٧ .
- المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ص ٣٣٠ وما بعدها .

ونعرف أن ابنه المغيرة توفى عام ٣٦٥ هـ = ٩٧٦ م ، أما البقية فلم أجد لهم ذكراً فيما بين يدى من مصادر .

وأمْحضتُكَ النصْحَ الصريحَ وفى الحشى لـــوُدِّك نقشٌ ظاهرٌ وكتـــابُ
فلو كان فى رُوحى هواكَ اقتلعتُـه ومُـــزِّق بالكفين عنـه إهابُ
وما لى غيرُ الـــودّ منك إرادةٌ ولا فى سواه لى إليك خطاب
إذا حُزتَهُ فالأرضُ جمعاءُ والـــورى هبـــاءٌ وسكانُ البلاد ذُباب

وكلفتنى – أعزك الله – أن أصنف لك رسالة فى صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه ، ومايقع فيه وله على سبيل الحقيقة ، لامتزيداً ولا مفننا . لكن مُورداً لما يحضرنى على وجهه ، وبحسب وقوعه ، حيث انتهى حفظى وسعة باعى فيما أذكره ، فبدرت إلى مرغوبك ، ولولا الإيجاب لك لما تكلفته ، فهذا من اللغو . والأَوْلى بنا مع قصر أعمارنا ألاّ نصرفها إلاّ فيما نرجو به رَحْب المنقلب ، وحسن المآب غدا . وإنْ كان القاضى حُمام بن أحمد(٤) حدّثنى عن يحيى بن مالك ، عن عائذ بإسناد يرفعه إلى أبى الدرداء أنه قال : أَجِمُّوا النفوس بشىء من الباطل ليكون عونا لها على الحق . ومن بعض أقوال الصالحين من السلف المرضى : « من لم يحسن يتفتّى لم يحسن يتقرى » . وفى بعض الأثر : « أريحوا النفوسَ فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد » .

والذى كلفتنى لابد فيه من ذكر ما شاهدتْه حضرتى ، وأدركتْه عنايتى ، وحدّثنى به الثقات من أهل زمانى ، فاغتفرْ لى الكناية عن الأسماء ، فهى إمّا عورة لا نستجيز كشفها ، وإمّا نحافظ فى ذلك صديقاً ودودا ورجلا جليلا . ويحسن أن أسمىّ من لا ضرر فى تسميته ، ولا يَلحقنا والمسمّى عيب فى ذكره ، إمّا لاشتهار لا يُغنى عنه الطى وترك التبيين ؛ وإمّا لرضا المُخبَرُ عنه بظهور خبره ، وقلة إنكار منه لنقله .

وسأورد فى رسالتى هذه أشعاراً قلتُها فيما شاهدته ، فلا تنكر أنتَ ومن رآها علىّ أنى سالك فيها مسلك حاكى الحديث عن نفسه ، فهذا مذهب المتحلّين بقول الشعر ، وأكثر من ذلك فإن إخوانى يحشمونى القولَ فيما يعرِض لهم على طرائقهم ومذاهبهم .

---

(٤) كان واحد عصره فى البلاغة ، وفى سعة الرواية ، حسن الشعر ، تولى قضاء بابرة وشنترين والأشبونة ، وسائر الغرب ، وأثنى عليه ابن حزم كثيراً ، توفى ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م . انظر ترجمته فى :
• ابن بشكوال : الصلة ، ترجمة رقم ٣٥٠ ، طبعة القاهرة ١٩٦٦ .

وكفانى أنى ذاكر لك ما عَرَض لى مما يشاكل ما نحوتُ نحوه وناسبه إلىّ .

والتزمت فى كتابى هذا الوقوف عند حدك ، والاقتصار على ما رأيت أو صح عندى بنقل الثقات . ودعنى من أخبار الأعراب والمتقدّمين ، فسبيلُهم غير سبيلنا ، وقد كثرت الأخبار عنهم ، وما مذهبى أن أنضى مطية سواى . ولا أتحلى بحلى مستعار ، والله المستغفر والمستعان ، لا رب غيره .

* * *

وقسمت رسالتى هذه على ثلاثين بابا ، منها فى أصول الحب عشرة . فأولها باب [فى ماهية الحب] ، ثم باب فى علامات الحب ، ثم باب فيه ذكر من أحب فى النوم ، ثم باب فيه ذكر من أحب بالوصف ، ثم باب فيه ذكر من أحب من نظرة واحدة ، ثم باب فيه ذكر من لا تصح محبته إلا مع المطاولة ، ثم باب التعريض بالقول ، ثم باب الإشارة بالعين ، ثم باب المراسلة ، ثم باب السفير .

ومنها فى أعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة اثنا عشر بابا ، وإن كان الحب عرضا والعرض لا يحتمل الأعراض ، وصفة والصفةُ لا توصف ، فهذا على مجاز اللغة فى إقامة الصفة مُقام الموصوف ، وعلى معنى قولنا : وجودنا عرضا أقل فى الحقيقة من عرض غيره ، وأكثر وأحسن وأقبح فى إدراكنا لها عِلْمُنا أنها متباينة فى الزيادة والنقصان من ذاتها المرئية والمعلومة ؛ إذ لا تقع فيها الكمية ولا التجزى ، لأنها لا تشغل مكانا ، وهى : باب الصديق المساعد ، ثم باب الوصل ، ثم باب طى السر ، ثم باب الكشف والإذاعة ، ثم باب الطاعة ، ثم باب المخالفة ، ثم باب من أحب صفة لم يُحب بعدها غيرها مما يخالفها ، ثم باب القنوع ، ثم باب الوفاء ، ثم باب الغدر ، ثم باب الضنى ، ثم باب الموت .

ومنها فى الآفات الداخلة على الحب ستة أبواب ، وهى : باب العاذل ، ثم باب الرقيب ، ثم باب الواشى ، ثم باب الهجر ، ثم باب البين ، ثم باب السلو .

من هذه الأبواب الستة بابان لكل واحد منهما ضدٌ من الأبواب المتقدمة الذكر ، وهما : باب العاذل وضده باب الصديق المساعد ، باب الهجر وضده باب الوصل .

ومنها أربعة أبواب لاضد لها من معانى الحب ، وهى : باب الرقيب وباب

الواشى ، ولا ضد لهما إلاّ ارتفاعهما . وحقيقة الضد ما إذا وقع ارتفع الأول ، وإنْ كان المتكلّمون قد اختلفوا فى ذلك . ولولا خوفُنا إطالة الكلام فيما ليس من جنس الكتاب لتقصيناه .

وباب البين وضده تصاقب الديار ، وليس التصاقب من معانى الحب التى نتكلم فيها . وباب السلو وضده الحب بعينه ، إذ معنى السلو ارتفاع الحب وعدمه .

ومنها بابان ختمنا بهما الرسالة ، وهما : باب الكلام فى قبح المعصية ، وباب فى فضل التعفّف . ليكون خاتمة إيرادنا ، وآخر كلامنا ، الحضُّ على طاعة الله عز وجل ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فذلك مُفترضٌ على كل مؤمن .

لكنّا خالفنا فى نسق بعض هذه الأبواب هذه الرُّتبة المقسمة فى دَرج هذا الباب ، الذى هو أول أبواب الرسالة ، فجعلناها على مباديها إلى منتهاها ، واستحقاقها فى التقدم والدرجات والوجود ؛ ومن أول مراتبها إلى آخرها ، وجعلنا الضد إلى جنب ضده ، فاختلف المساق فى أبواب يسيرة ، والله المستعان .

وهيأتها فى الإيراد أولها هذا الباب الذى نحن فيه ، وفيه صدر الرسالة ، وتقسيم الأبواب ، والكلام فى ماهية الحب ، ثم باب علامات الحب ، ثم باب من أحب فى النوم ، ثم باب من أحب بالوصف ، ثم باب من أحب من نظرة واحدة ، ثم باب من لا يحب إلاّ مع المطاولة ، ثم باب من أحب صفة لم يحب بعدها غيرها مما يخالفها ، ثم باب التعريض بالقول ، ثم باب الإشارة بالعين ، ثم باب المراسلة ، ثم باب السفير ، ثم باب طىّ السر ، ثم باب إذاعته ، ثم باب الطاعة ، ثم باب المخالفة ، ثم باب العاذل ، ثم باب المساعد من الإخوان ، ثم باب الرقيب ، ثم باب الواشى ، ثم باب الوصل ، ثم باب الهجر ، ثم باب الوفاء ، ثم باب الغدر ، ثم باب البين ، ثم باب القنوع ، ثم باب الضنى ، ثم باب السلو ، ثم باب الموت ، ثم باب قبح المعصية ، ثم باب التعفّف .